# رسالة .. من عربي في دمشق

بقلم محيي الدين اسماعيل

أكتب رسالتي هذه وانا اجاهد القشعريرة المؤلمة في الساعات الطويلة من الليل تمتد كأنها الدهور .. وان فكري ليسرب في هذه الساعات الى انحاء قصية .. انا الان افكر بحرارة وايمان ، كما اجالد القشعريرة المؤلمة بحرارة وايمان .

هنا في ظلمتي الرطبة ، صور واطياف ، ولكنها نيرة مشرقة .

هنا عندي جدار اسود كتبت عليه حروف من اسماء موتى كثيرين ، قد سبقوني ، كتبت بحجر اسود ، أوكتبت بعيون آدمية . ولكن لن يستطيعوا أن يحولوا احلامنا الى صور واطياف مفزعة .

نحن هنا مازلنا نفكر في الحياة .. طريقنا طريق المغامرة الكبرى تمتد كآهات الحزانى ، ولكن الى مطلع الشمس ! وتجثم على قارعتي الطريق صخور سوداء ملعونة تشبه صخور الجحيم ، تقطر منها الوحول الصدئة .

وعلى الجانبين شعاف الجبال تهمس في صياصيها الرياح المتناوحة كأنها تعاويذ السحرة ، تجر اذيالها الهوج .

الان تذكرت اخر عشاء تناولناه بالامس ، قبل أن يطبق علينا السواد الكثيف .

كانت المهرجانات والاعراس تشق لوح السماء .... تماما كمدينة « بومبيي » يوم أن بدأ في مهرجاناتها واعراسها « فيزوف » يعبق شيئا احمر كالدم .. ثم بدأ لعابه المسموم الذي يحمل الدمار ، يسيل ليجتاح المدينة .

اتنتهي هذه المدينة كما انتهت « بومبيي » قبرا رهيبا صامتا ، وينتهي كل شيء في ضجة وفزع ، لابنحيب هادىء مريح ؟!

لا ! .. لا !.. باطل فيزوف ارضي ، سنطفئه غدا بدماء العذارى ، وبدموع اطفالنا الجائعين .

اننا لانبكي ، فقد وجدنا هنا صهريج الخلود .. غدا نغتسل فيه ونتطهر من ارجاسنا !

لقد أحببنا كل شيء جميل في الحياة والانسان .. والجميل ايضا ان نحيا حياتنا دما ولحما .. جميعنا هنا قطرات من دم على هذه الارض الطاهرة البتول .

متى أحسسنا بوطأة المستحيل ؟.. لقد نسينا . فقد آلمتنا ذكريات الامس .

اصبحت الحياة ، الحياة الحقة ، لاتتحقق الا بشروط ومن هنا استشعرنا انه لا الضجر من الحياة ولا اليأس منها ولا الشعور بتفاهة الزمن ، ولا بطلان قلقنا من أجل ماتريد ، ولا كراهية العالم ، كل ذلك لن يستطيع ان يقدم لنا معنى لحياتنا .

اننا فقدنا ذلك الحلم الساحر القديم ! حلم الاخيلة اللذيذة التي تتعانق فيها الذكريات الماضية بالاشواق المقبلة .

علينا ، اذن ، ان نعيد بناء انفسنا من جديد تحت وطأة عالم ثقيل .. عالم نما زهرة دامية في القلوب .

وهذه الامواج من الناس ، كأنها لطخ سوداء ، تسير صاخبة مسرعة ، بلباقة عجيبة مضحكة .

ان مدينتنا تنتزع الضحك من الشفاه ، وتجهز عليه في القلوب .. اضواؤها ، واختلاجات النور في شبابيكها ، والالحان التي تقرع في خفوت ، والوجوه الممزقة المتهرئة من فرط هول الفاجعة ، والاجسام الخدرة الغافية .

والسأم والضجر ..

كل ذلك عندنا هنا ، ولكن من هنا ايضا سيولد تاريخ جديد .

الفاجعة عندنا تسير بأقدامها الرصاصية الثقيلة ، كحيوان خرافي رهيب ، في شوارع المدينة ، وهي تردد قول « نيرون » :

« لو كانت هناك جمجمة واحدة فحسب ، فلأصبن السم فيها !.. »

ولكننا لن نسقط هنا ابدا ، لان في اعماقنا قوة التأمل الالهي العظيم .

فيا للارض الشاحبة المذهولة ، يا نكهة السماء في الشواطىء الرملية التي لم ينتلعها التاريخ ، ايتها القلوب الصادحة ابدا ! سيظل بدارنا أخضر ، واعماقنا مجنحة الاشواق

سترتفع المرساة غدا ، ولن تبقى سوى الصواري تشق الافق بصلابة الازميل .

ايتها الارواح القرابين ، في ارضي !

أيتها النعمة المكنونة في مأساة أمتي !

في قلب العاصفة الخرساء ، رأينا اخواننا في ليل احلامهم الهائمة يرتفعون ويسقطون ، ويمرون بنا من الغيب الى الغيب . ولكن الحقيقة المظلمة ستنكمش امام احداق النهار . ستمطرنا غدا اسماؤنا المكوكبة المنقوشة ، وستهبط غلائل السماء الزرقاء ، وتشيع الغبطة البلورية .

اما نواقيسنا التي سفت عليها اعاصير القرون ، فستصعد الحانها الى اغوار الفجر .

فجرنا له الف موجة وموجة لا ترحم .. فجرنا يمتد غدا لسان عاصفة من نار .

من الغيب الى الغيب !

لمن خلق الشاطىء والبحر الملحى والرمال النائمة في الظهيرة الكبرى ؟

لمن طهرنا مرافىء اقلاعنا الاول ؟

رأينا هنا اخوتنا يركلون القدر في الشوارع الخالية .

كان صريعا بين ايديهم ، والدماء تشخب من جبينه .

وجهه بلون الشفاه العذراوية الدماة ..

عيناه بنفسجية الاعماق

البسوه تاج الشوك البرنزي

قلنا له : ايها السيد اسمعنا من عطر شفاهك !

سمعناه يقول : الف جوداس وجوداس .. ولكن لوحة احلامي البيض تظل هنا ، على ارضي ، مع البسمة اللؤلؤية المتأججة بمجد الدماء .

القاهرة

محيي الدين اسماعيل